شعر

الوقوف على الأطلال

من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث

- ٥ -

٥ - حال الشاعر حين الوقوف على الديار

يختلف هذا المعنى عن المعاني الأخرى في شعر الوقوف على الأطلال. فالمعاني التي درسناها سابقاً تتعلق جميعاً بالديار وبقاياها، على حين يدور هذا المعنى الجديد على أنفس الشعراء وأحوالهم حين الوقوف على الأطلال. وهو مع ذلك نتيجة لتأثير المعاني السابقة في أنفس الشعراء، فهو لذلك يتعلق بهذه المعاني، ويرتبط بها بهذا الرباط الوثيق.

والشعراء مشغوفون بأطلال الديار، وقلوبهم متعلقة بها. وهذا الشغف هو الذي يشدهم إلى الأطلال، ويحبسهم للوقوف عليها. وهو بذلك بدء أحوالهم النفسية ومشاعرهم، ومنطلقها الأول حين وقوفهم على الأطلال. قال امرؤ القيس[1]:

لمن طللٌ درستْ آيُه ... وغيَّره سالفُ الأحْرُسِ[2]

تَنَكَّرُه العينُ من حادث ... ويعرفه شغفُ الأنفسِ

---

(١) زهر الآداب ٢٤٠.

(٢) آيه: أي علاماته وآثاره، واحدها آية. والأحرس: جمع حَرْس، وهو الدهر والزمن.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال طريح بن إسماعيل الثقفي (١) :

تستخبر الدمنَ القفارَ ، ولم تكن لتردَّ أخباراً على مستخبرِ
فظللتَ تحكم بين قلبٍ عارفٍ مغنى أحبَّته وطرفٍ منكرِ

والحالات النفسية التي كانت تعتري الشعراء جميعاً ، والمشاعر التي كانوا يحسون بها حين وقوفهم على أطلال الديار كثيرة متعددة . وهي على كثرتها وتعددها تتصف دائماً بالحزن والكآبة . والسر في ذلك أن هذه الأحوال النفسية تنشأ عن الذكرى ، ذكرى الأيام الماضية السعيدة التي قضاها الشاعر ناعماً سعيداً مع أحبائه . ومن طبيعة الذكرى أن تثير الحزن والأسى . وقد ذكر الشعراء هذه الأحوال والمشاعر ، ووصفوها في شعر الوقوف على الأطلال وصفاً حزيناً كئيباً ، يشجي النفوس ، ويثير في أعماقها تعطفاً وتحناناً على هؤلاء الشعراء .

وكأننا بالشاعر حين يقف بالديار ، ويجيل نظراته في أنحائها ، ويرى بقاياها البالية المهجورة تغالب الفناء ، وتظل قائمة ، تثور في نفسه الذكرى ، فيعود بخياله إلى أيام حياته السعيدة التي قضاها في هذه الربوع على وصال مع أحبته . فتثير هذه الذكرى في نفس الشاعر الألم والحزن ، « ولا يبعث الأحزان مثل التذكر » كما قالت ليلى الأخيلية (٢) ، وتهيج فيها الشوق والصبابة . وقد تذهله الذكرى عن نفسه ، فيذهب به الخيال بعيداً ، ويبلغ به الحزن مبلغاً ، فيبكي ويذرف الدموع كالأطفال . وبعد فراغ شحنة الحزن والصبابة التي تذهب وتنقضي مع سيلان الدموع يفيق الشاعر من ذهوله ، وتثوب إليه نفسه ، ويرى أن لا طائل في الوقوف والبكاء ، فيتسلى عن

---

(١) زهر الآداب ٢٤٠ .

(٢) الأغاني ١٠/٧٢ ـ ٧٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

حزنه وهمه وذكري أيامه الماضية بمتابعة طريقه في السفر ، ويحث مطيته على السير في مجاهل الصحراء .

وهكذا فانبعاث ذكرى الأيام الماضية أولاً ، ثم ثورة الحزن والألم في نفس الشاعر ثانياً ، وهياج الشوق والصبابة ثالثاً ، وذهول الشاعر عن نفسه رابعاً ، والبكاء وذرف الدموع خامساً ، ثم التسلي والتعزي سادساً ، هي أهم الحالات النفسية التي كانت تعتري الشعراء حين وقوفهم على أطلال الديار .

وهذه الحالات النفسية التي ذكرناها نراها تتردد كثيراً في شعر الوقوف على الأطلال . على أن أشهر هذه الحالات التي تعتري الشعراء ، وأكثرها دوراناً في الشعر هي حالة البكاء وذرف الدموع . وقلما يخلو شعر في الوقوف على الأطلال من البكاء والدموع . فقد بكى الشعراء طويلاً على ديار أحبائهم ، وتمللوا بوصف الديار ، وتسلوا بنعت الأطلال ، ولا سيما الغزلون البداة منهم . والشعراء يتصفون برقة الطباع ، ورهافة الإحساس ، فلا نعجب منهم إذا ما بكوا في ديار الأحبة ، وأطالوا في هذا البكاء . على أن بعضهم قد بالغوا في البكاء ، وأوغلوا في سفح الدموع حتى سالت على خدودهم ، وبللت ثيابهم . وأبيات امرئ القيس في معلقته معروفة مشهورة في هذا الميدان . قال (١) .

كأني غـداةَ البين يوم تحمَّلوا ... لدى سَمُرات الحي ناقفُ حنظلِ (٢)
وقوفاً بها صحبي عليَّ مطيَّهم ... يقولون : لاتهلك أسىً ، وتجمَّلِ (٣)
ففاضت دموعُ العين مني صبابةً ... على النحر حتى بلَّ دمعيَ مِحْمَلي (٤)

---

(١) ديوانه ٩ .

(٢) السمرة : شجرة الصمغ العربي . وناقف الحنظل : الذي يستخرج حبه ، والحنظل له حرارة تدمع منها العين .

(٣) المطي : الإبل ، واحدتها مطية .

(٤) المحمل : أي محمل السيف .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكان هذ البكاء يشفي هموم الشعراء ، ويطفىء غلة صدورهم ، ويمسح عن نفوسهم آلام الذكرى ، ويغسل عنها آثار الحرمان ، ويريحهم من حرقة الوجد . قال ذو الرمة (١) :

خليليَّ ، عوجا من صدور الرواحلِ ببرقة حُزْوى ، فابكيا في المنازلِ
لعل انحدارَ الدمع يعقب راحـةً من الوجد ، أو يشفي نجيَّ البلابل (٢)

* * *

وقد عمد الشعراء في وصف بكائهم وانحدار الدموع من عيونهم إلى التصوير . فصوروا ذلك في صور طريفة ، تستوقف نظرنا منها صورتان اثنتان شهيرتان ، تردان كثيراً في شعر الوقوف على الأطلال . الصورة الأولى هي تشبيه انبجاس الدموع من العينين وانحداره بتسرب الماء من شقوق القربة البالية وانحداره إلى الأرض . قال امرؤ القيس (٣) .

ذكرت بها الحيَّ الجميعَ ، فهيجتْ عقابيلَ سقمٍ من ضمير وأشجانِ (٤)
فسحَّتْ دموعي في الرداء كأنها كُلًى من شَعيبٍ ذات سحٍّ وتَهْتانِ (٥)

فنحن نرى امرأ القيس قد تذكر حين وقف بالديار أحباءه ، وهم مجتمعون في الماضي ، فهيجت هذ الذكرى داءه القديم . فبكى لذلك بكاء غزيراً ، وسحَّت دموعه ، حتى بلل الدمع رداءه . ثم ذكر في تصوير

(١) ديوانه ٤٩١ ـ ٤٩٢ .
(٢) النجي : ما يحدث به الإنسان نفسه . والبلابل : الهموم التي تتردد في الصدور .
(٣) ديوانه ٨٩ ـ ٩٠ .
(٤) الجميع : المجتمعون النازلون في موضع واحد . وعقابيل السقم : بقاياه . ويريد بالسقم هواه وحبه .
(٥) الشعيب : مزادة الماء البالية . والكلى : جمع كلية ، وهي رقعة تكون في أصل عروة المزادة ، وأكثر ما يسيل الماء منها .

شبكة الألوكة
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

انحدار دموعه أنها تشبه قطر الماء وسيلانه من خرز قربة الماء . وقد اعتاد الشعراء أن يذكروا قربة الماء البالية في هذا المجال . والسر في ذكر القربة البالية خاصة في أمثال هذه الصورة هو المبالغة في الوصف ، وذلك أن خرز هذه القربة تكون أوسع من خرز القربة الجديدة ، وشقوقها أكثر ، وهذا أدعى لتسرب الماء وسيلانه .

والصورة بعد مأخوذة من صميم حياة الأعراب في البادية ، فاستقاء الماء من الآبار والغدران ، ونقله في الروايا والقرب شيء مألوف في حياة الأعراب اليومية ، وهو منظر يكثر وقوع أعين الناس عليه . فلهذا أكثر الشعراء من إيراد هذه الصورة في شعر الوقوف على الأطلال في موضوع وصف بكائهم وسفحان دموعهم .

* * *

والصورة الثانية هي تشبيه انحدار الدموع من العينين أثناء البكاء بسيلان الماء من جوانب الدلو حين تنزع من البئر مليئة ، والماء يفيض من جوانبها ، ويتحدر رشاشاً أبيض نحو الأرض . قال الحطيئة في ذلك (١) :

أمن رسم دارٍ مربعٌ ومصيفُ ... لعينيكَ من ماء الشؤون وكيفُ (٢)

رشاش كغربيْ هاجريٍّ ، كلاهما ... له داجنٌ بالكرّتين عليفُ (٣)

تذكرتُ فيها الجهلَ حتى تبادرتْ ... دموعي ، وأصحابي عليَّ وقوف (٤)

---

(١) ديوانه ٢٥٣ .

(٢) معنى البيت : أمن رَسْمِ المربع والمصيف هذه الدارَ تبكي عيناك .

(٣) الغرب : الدلو العظيمة من جلد ثور ، يجرها بعير . والهاجري : الساقي الماهر . والداجن : البعير الذي ألف السقي . والكرتان : كرة بالذهاب حين نزع الدلو من البئر ، وكرة بالعودة لإنزال الدلو في البئر .

(٤) الجهل : جهل الشباب وطيشه .

شبكة الألوكة www.alukah.net
www.alukah.net

لقد وقف الحطيئة على دار أحبته ، فرأى أن مرور الربيع والصيف قد غيّرا آثارها ودرساها ، فبكى لذلك ، وذرف الدمع من عينيه غزيراً سخيناً ، حتى كانت عيناه كدلوين ترشان بأماء رشاً !

وهذه الصورة شبيهة بالصورة الأولى في الأصل ، قريبة منها في الشكل والعناصر الأخرى . وهي أيضاً مثلها مستمدة من حياة الأعراب في البادية ، لأن استقاء الماء بالدلاء من الآبار للشرب وسقي الأغنام والأنعام ضرورة لازمة لهذه الحياة ، وعمل أساسي من أعمال الأعراب اليومية .

* * *

وللشعراء صور أخرى جيدة طريفة في وصف سيلان دموعهم من عيونهم حين وقوفهم على ديار الأحبة . منها تشبيه الدموع الجارية بالجمان المنتثر من النظام . قال ذو الرمة في ذلك (١) :

قف العيسَ في أطلال مية ، واسألِ رسوماً كأخلاق الرداء المسلسلِ (٢)

أظن الذي يجدي عليك سؤالُها دموعاً كتبديد الجمان المفصَّلِ

ومنها تشبيه ذرف الدموع بسقوط قطرات ماء المطر من أغصان الشجر . قال جران العود في ذلك (٣) :

فبتُّ كأن العينَ أفنانُ سدرةٍ عليها سَقيطٌ من ندى الليل ينطفُ (٤)

---

(١) ديوانه ٥٠١ .

(٢) العيس : الإبل البيض . وأخلاق الرداء : قطعه البالية .

(٣) ديوانه ١٣ .

(٤) أفنان السدرة : أغصانها . والسقيط : الثلج .

شبكة الألوكة www.alukah.net
مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد أتى إبراهيم بن هَرْمَة بالصورتين معاً في شعر له ، قال (١) :

كأن عينيّ إذ ولّت حمولهمُ ... مني جناحا حمام صادف مطرا

أو لؤلؤٌ سلِسٌ في عقد جارية ... ورهاءَ نازعها الولدانُ فانتثرا (٢)

ووصف امرؤ القيس بكاءه في الديار مرة ، وصوّر دموعه ، فشبهها في معرض التصوير بأشياء عديدة مختلفة دفعة واحدة ، فقال (٣) :

عيناكَ دمعُهما سِجالُ ... كأن شأنيهما أوشالُ (٤)

أو جدولٌ في ظلال نخل ... للماء من تحته مَجالُ

هذه عدة صور أتى بها امرؤ القيس في مبالغة وإغراق . ولكنها مبالغة شيقة مستحبة ، لأنها من صنع شاعر مجيد . والشاعر يضفي على صوره ومعانيه أشياء من عواطفه ومشاعره ، فيخفف بذلك من وقع المبالغة في نفوسنا . والشعراء بعدُ أصحاب أخيلة مجنحة تطير بهم بعيداً في أجواء الفن ، فنغفر لهم ، ولا نحاسبهم لذلك حساباً عسيراً .

وتابع عبيد بن الأبرص امرأ القيس في وصف بكائه وتشبيه دموعه بعدة أشياء في صور متوالية ، مبتدئاً بقربة الماء البالية ، ومنتهياً بجدول ماء

---

(١) التشبيهات ٨٠ .

(٢) ورهاء : أي حمقاء .

(٣) ديوانه ١٨٩ .

(٤) السجال : جمع سَجْل ، وهو الدلو . والأوشال جمع وَشَل ، وهو الماء القليل الجاري .

شبكة الألوكة
www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
w w w . a l u k a h . n e t

يجري خلال النخيل . قال عبيد (١) :

عيناكَ دمعها سروبُ كأن شأنيها شعيبُ (٢)
أو فَلَجٌ ما ببطن وادٍ الماء من تحته قسيبُ (٣)
أو جدول في ظلال نخل الماء من بينه سُكوبُ

هذه صور طريفة ، سريعة الحركات ، متلاحقة النغمات ، نرى فيها رقة ومرحاً ، ولا نسمع رنة الحزن ولا ترجيعات البكاء ، فهي تغيب وتختفي وراء أمواج النغم التي يوقعها الشاعر .

* * *

ولقد أفصح الشعراء عن حزنهم وألمهم في شعر الوقوف على الأطلال بمعان كثيرة وعبارات مختلفة . ولكن المعنى الذي تداولوه جميعاً ، وعبروا عنه بعبارة واحدة هو معنى الشجو ، أي الحزن الدائم العميق في سكون ، حتى إنهم كثيراً ما كانوا يبدؤون أشعارهم بلفظ (الشجو) نفسه ، كما قال طرفة ابن العبد (٤) :

أشجاكَ الربعُ أم قِدمُهْ أم رمادٌ دارسٌ حُمَمُهْ (٥)

فهو يتساءل عن هذا الحزن أو الشجو الذي ثار في نفسه من وقوفه على الديار ، وعبَّر عن هذا الحزن بلفظ مأخوذ من الشجو ، فقال : أشجاك .

---

(١) ديوانه ١٢ .
(٢) سروب : كثير الجريان . والشعيب : قربة الماء البالية .
(٣) الفلج : الماء الجاري . والقسيب : صوت جري الماء .
(٤) ديوانه ١٤٨ .
(٥) حممه : أي فحمه ، واحدتها حُمَمة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكذلك أكثر الشعراء من ذكر هياج الشوق والصبابة في هذا المجال ، واعتادوا افتتاح قصائدهم بلفظ (هاج) نفسه . قال الحطيئة (١) :

وهاجَ لكَ الصبابةَ من هواها بحَزْوِ قراقرٍ طللٌ مُحيلُ (٢)
كما هاجَ الصبابةَ يومَ مرَّت عوامدَ نحوَ واقصةَ الحُمولُ (٣)

وقال زهير بن أبي سلمى (٤) :

هاجَ الفؤادَ معارفُ الرسمِ قفرٍ بذي الهضبات كالوشمِ

وقال حسان بن ثابت (٥) :

أهاجكَ بالبيداء رسمُ المنازلِ نعم،قد عفاها كلُّ أسحمَ هاطلِ (٦)

والشكوى من دأب الشعراء في وقوفهم على أطلال الديار . فهي حبيبة إلى قلوبهم ، قريبة إلى نفوسهم ، يناجونها ويبثونها آلامهم وأحزانهم ، ويشكون إليها ما يكابدون من شوق إلى أهلها الظاعنين ، ويجدون في هذه الشكوى عزاء وسلوى . وكأن هذه الديار رفيق أمين يسعدهم في بلواهم ، فيأنسون بقربه ، وينعمون بلقائه ، وينسون وحدتهم ووحشتهم عنده ، ولو إلى حين . قال ذو الرمة في الشكوى (٧) :

وقفتُ على ربعٍ لميةَ ناقتي فما زلتُ أبكي عندَه وأخاطِبُهْ
وأُشكيه حتى كاد مما أبثه تكلمني أحجارُه وملاعبُهْ (٨)

---

(١) ديوانه ١٩٧ .
(٢) المحيل : المتغير .
(٣) عوامد : أي قواصد . والحمول : الابل عليها هوادج النساء .
(٤) ديوانه ٣٨٢ .
(٥) ديوانه ٣١٣ .
(٦) الأسحم : السحاب الأسحم ، وهو الأسود .
(٧) ديوانه ٣٨ ، واللسان (شكا) .
(٨) أشكيه : أشكو إليه أمري .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبعد فإن الاستغراق في الذكرى ، والذهول عن النفس من المعاني التي رددها الشعراء كثيراً في شعر الوقوف على الأطلال ، لشدة حزنهم وفرط صبابتهم وشغفهم ، حتى ما يطيقون مغادرة الديار . قال امرؤ القيس في هذا المعنى (١) :

ظَلِلْتُ ردائي فوق رأسي قاعداً أعد الحصى ، ماتنقضي عبراتي

أعِنّي على التّهمام والذِّكرات ِ يبتن على ذي الهم معتكرات ِ (٢)

فهو قاعد لايبرح الديار ، ذاهل عن نفسه وعن الدنيا من حوله ، يعد الحصى من الهم حيرانَ آسِفاً ، ويبكي لهفة وشغفاً . وتأخذه الذكرى والهموم من كل جانب ، فيفر منها إلى رفيق الطريق في السفر يطلب العون والعزاء .

وقد شبّه كثير من الشعراء أنفسهم في ذهولهم واستغراقهم في الذكرى والصبابة بشارب الخمر الذي باكر الشراب فانتشى . قال امرؤ القيس (٣) :

فظَلِلْتُ في دمن الديار كأنني نشوانُ باكره صَبوحُ مدام ِ

وقال عبيد بن الأبرص (٤) :

ظَلْتُ بهـــا كأنني شاربٌ صهبـــاءَ مما عتّقتْ بابلُ (٥)

فقد استغرق امرؤ القيس وعبيد في الذكرى ، وغابا في دنيا الذكريات عن نفسيهما وعما يدور حولها ، كما يغيب النشوان من أثر الخمر .

---

(١) ديوانه ٧٨ .
(٢) معتكرات : أي دائمات متتابعات .
(٣) ديوانه ١١٥ .
(٤) ديوانه ٩٨ .
(٥) ظلت بها : أي ظللت بها .

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

على أن تشبيه الشاعر نفسه بشارب الخمر النشوان في ذهوله واستغراقه في الذكريات حين وقوفه على أطلال الديار قد انقطع في الإسلام بعد أن كان شائعاً في الجاهلية . وهذا أثر من آثار تعاليم الإسلام التي تحرم شرب الخمر على المسلمين .

وقد انتهى الشعور بالوجد والحزن والصبابة بالحطيئة الشاعر حين وقف على ديار هند ، ورأى بقاياها العافية ، وفعل الزمن والرياح في آثارها ، وبدأ يسائلها عن أهلها الظاعنين ، نقول : انتهى كل ذلك بالحطيئة الشاعر إلى الارتماش والألم الشديد الذي يعتري من تنهشه أفعى قديمة قاطعة الدم . قال الحطيئة (١) :

قد غيَّر الدهرُ من بعدي معارفَها والريحُ ، فادَّفنتْ فيها مغانيها
جرَّت عليها بأذيال لها عُصُفٍ فأصبحتْ مثلَ سَحْقِ البرد عافيها
كأنني ساورتني يوم أسألها عَوْدٌ من الرُّقْش،ماتصغي لراقيها(٢)

وشعور الحطيئة هذا وألمه أمام هذه الآثار العافية من ديار هند هو أعلى درجات الانفعال والحزن في شعر الوقوف على الأطلال .

الدكتور عزة حسن

(١) ديوانه ٢٠١ ـ ٢٠٢ .
(٢) العود : القديم المسن ، ويريد حية قديمة هنا . والرقش : جمع رقشاء ، وهي الحية المنقطة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net